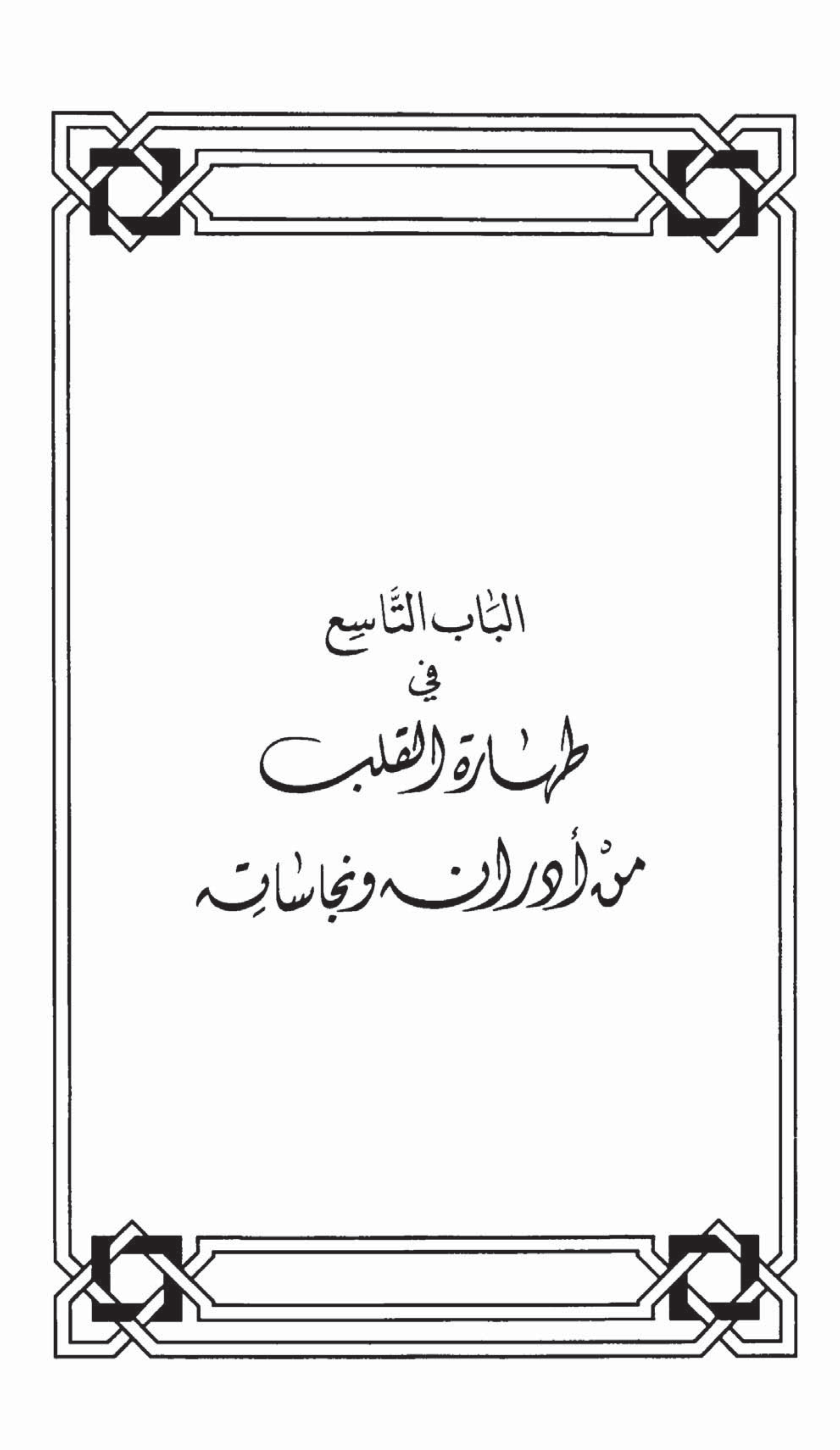


البَابُ التَّاسِع
فِي
طَهَارَةِ القَلْب
مِنْ أَدْرَانِهِ وَنَجَاسَاتِهِ

الفصل الأول

الثياب وطهارة القلب

[قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾]:

هذا الباب، وإن كان داخلاً فيما قبله[1] كما بينا أن الزكاة لا تحصل إلا بالطهارة، فأفردناه بالذكر لبيان معنى طهارته، وشدة الحاجة إليها، ودلالة القرآن والسنة عليها.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ [المدثر: ١ ـ ٤].

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

[القائلون بأن المراد بالثياب القلب]:

وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ههنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح الأخلاق والأعمال.

قال الواحدي: اختلف المفسرون في معناه.

فروى عطاء عن ابن عباس قال: يعني من الإثم، ومما كانت الجاهلية تجيزه.

---

(١) المقصود أنه داخل في التزكية، وهو موضوع الباب التالي وقد كان حسب وضع المؤلف قبل هذا الباب، وإنما أخرته بناء على تقرير المؤلف أن الزكاة إنما تكون بعد الطهارة.

وهذا قول قتادة ومجاهد، قالا: نفسك فطهر من الذنب.

ونحوه قول الشَّعْبي وإبراهيم والضحاك والزُّهري.

وعلى هذا القول: «الثياب» عبارة عن النفس، والعرب تكْني بالثياب عن النفس. ومنه قول الشَّمَّاخ:

رَموها بأثوابٍ خفافٍ، فَلا تَرىٰ لهـا شَبَهـاً إلا النعـامَ المنَفَّـرا

رموها يعني «الركاب» بأبدانهم.

وقال عنترة:

فشككتُ بـالرُّمحِ الطَّويلِ ثيـابَهُ ليْسَ الكَريمُ عَلَىٰ القَنَـىٰ بِمُحَـرَّمِ

يعني نفسه.

وقال في رواية الكلبي: يعني لا تغدر، فتكون غادراً دنس الثياب.

وقال سعيد بن جبير: كان الرجل إذا كان غادراً قيل: دنس الثياب، وخبيث الثياب.

وقال عكرمة: لا تلبس ثوبك على معصية، ولا على فُجْرَة، وروى ذلك عن ابن عباس، واحتج بقول الشاعر:

وإنِّـي بحَمْـد اللهِ لا ثـوبَ غـادرٍ لَبسْـتُ، ولا مـن خِـزْيَـةٍ أتقنَّـع

وهذا المعنى أراد من قال في هذه الآية: وعملك فأصلح، هو قول أبي رزين ورواية منصور عن مجاهد وأبي رَوْق.

وقال السُّدي: يقال للرجل إذا كان صالحاً: إنه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجراً: إنه لخبيث الثياب.

قال الشاعر:

لا هُـــمَّ إنَّ عــامِــرَ بــنَ جَهْــمِ أَوْذَمَ حَجّـاً فــي ثِيــابِ دُسْــمِ[1]

يعني أنه متدنس بالخطايا، وكما وصفوا الغادر الفاجر بدنس الثوب، وصفوا الصالح بطهارة الثوب، قال امرؤ القيس:

ثيابُ بَني عَوف طهَارَى نَقية

يريد أنهم لا يغدرون، بل يوفون.

وقال الحسن: خُلُقك فحسِّنهُ، وهذا قول القرطبي.

وعلى هذا: الثياب عبارة عن الخلق، لأن خلق الإنسان يشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه.

وروى العَوفي عن ابن عباس في هذه الآية: لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طيب، والمعنى طهرها من أن تكون مغصوبة، أو من وجه لا يحل اتخاذها منه.

وروى عن سعيد بن جبير: وقلبك ونيتك فطهر.

وقال أبو العباس: الثياب اللباس، ويقال: القلب، وعلى هذا ينشد:

فسُلِّي ثيابي من ثيابك تَنْسلي

[القائلون بتفسير الآية على ظاهرها]:

وذهب بعضهم في تفسير هذه الآية إلى ظاهرها، وقال: إنه أمر بتطهير ثيابه من النجاسات التي لاتجوز معها الصلاة، وهو قول ابن سيرين، وابن زيد.

---

(١) أوذم الحج: أوجبه على نفسه، والمعنى: أنه أحرم بالحج وهو متلطخ بالذنوب.

وذكر أبو إسحاق: وثيابك فقصر، قال: لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسة، فإنه إذا انجرَّ على الأرض لم يُؤمَنْ أن يصيبه ما ينجسه، وهذا قول طاوس.

[قول من فسر الثياب بالنساء]:

وقال ابن عرفة معناه: نساءك طهرهن، وقد يكنى عن النساء بالثياب واللباس. قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وكنى عنهن بالإزار، ومنه قول الشاعر:

ألا أبلــغْ أبــا حَفْــصٍ رســـولاً فِـدىً لـكَ مـن أخـي ثقـةٍ: إزاري

أي أهلي.

ومنه قول البراء بن مَعْرور للنبي ﷺ ليلة العَقَبة: «لَنَمْنَعَنَّكَ ممَّا نَمْنَعُ منهُ أُزُرَنَا» أي نساءنا.

[رأي ابن القيم]:

قلت: الآية تعمُّ هذا كله، وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم، إن لم تتناول ذلك لفظاً فإن المأمور به إن كان طهارة القلب، فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك.

[أثر اللباس والطعام في هيئة القلب]:

فإن خبث الملبس يُكسبُ القلب هَيْئةً خبيثة، كما أن خبث المطعم يكسبه ذلك.

ولذلك حرم لبس جلود النُّمور والسِّباع بنهي النبي ﷺ عن ذلك في

عدة أحاديث صحاح[1] لا معارض لها، لما تُكسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات، فإن الملابس الظاهرة تسري إلى الباطن، ولذلك حرم لبس الحرير والذهب على الذكور، لما يكتسب القلب من الهيئة التي تكون لمن ذلك لبسه من النساء وأهل الفجور والخيلاء.

والمقصود: أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها، فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها، فالمقصود لنفسه أولى أن يكون مأموراً به، وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس، فلا يتم إلا بذلك، فتبين دلالة القرآن على هذا وهذا.

* * *

(١) من ذلك ما أخرجه أبو داود برقم (٤١٣٠، ٤١٣١).

الفصل الثاني

أثر سماع الباطل على القلب

[سماع الباطل يؤدي إلى تحريف الحق]:

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١] عقيب قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ مما يدل على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفاً للحق عن مواضعه، فإنه إذا قبل الباطل أحبه ورضيه، فإذا جاء الحق بخلافه ردَّه وكذبه إن قدر على ذلك، وإلا حَرَّفه.

كما تصنع الجَهْمية بآيات الصفات وأحاديثها، يردُّون هذه بالتأويل الذي هو تكذيب بحقائقها، وهذه بكونها أخبار آحاد لا يجوز الاعتماد عليها في باب معرفة الله وأسمائه وصفاته. فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فإنهم لو طهرت لما تعوضت بالباطل عن كلام الله ورسوله.

كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم تعوضوا بالسماع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني.

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله».

فالقلب الطاهر ـ لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث ـ لا يشبع من القرآن، ولا يتغذّى إلا بحقائقه. ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله، فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه،

بحسب ما فيه من النجاسة. فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض، لا تلائِمه الأغذيـة التي تلائم الصحيح.

ودلّت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله، وأنه سبحانه لما لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل، المحرفين للحق، لم يحصل لها الطهارة.

ولا يصح أن تفسر الإرادة ههنا بالإرادة الدينية، وهي الأمر والمحبة، فإنه سبحانه قد أراد ذلك لهم أمراً ومحبة، ولم يرده منهم كوناً. فأراد الطهارة لهم وأمرهم بها، ولم يرد وقوعها منهم، لما له في ذلك من الحكمة التي فواتها أكره إليه من فوات الطهارة منهم.

وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا الكبير في القدر[1].

[لا يدخل الجنة خبيث][2]:

ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبـه فلا بد أن يناله الخزي في الدنيـا والعذاب في الآخرة، بحسب نجاسة قلبه وخبثه.

ولهذا حَرَّم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طِيبه وطهره. فإنها دار الطيبين. ولهذا يقال لهم: ﴿ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، أي ادخلوها بسبب طيبكم.

والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث. فمن تطهر في

---

(١) هو كتاب (شفاء العليل).

(٢) هذه الفقرة وما بعدها حتى آخر الفصل استطرادات تناسبية جرّت إليها دلالة الآية الكريمة.

الدنيا ولقي الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق .

ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية ، كالكافر ، لم يدخلها بحال. وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعدما يتطهر من تلك النجاسة، ثم لا يخرج منها .

حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيُهَذَّبون من بقايا بقيت عليهم، قَصَّرت بهم عن الجنة ، ولم توجب لهم دخول النار ، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دخول الجنة .

[طهارتان]:

والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفاً على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر . وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفاً على الطيب والطهارة ، فلا يدخلها إلا طيب طاهر .

فهما طهارتان :

طهارة البدن .

وطهارة القلب .

ولهذا شرع للمتوضئ أن يقول عقيب وضوئه : (أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . اللهم اجعلني من التَّوَّابين واجعلني من المتطهرين)[١] .

فطهارة القلب بالتوبة .

وطهارة البدن بالماء .

فلما اجتمع له الطهران صلح للدخول على الله ، والوقوف بين يديه ومناجاتِه .

---

(١) أخرجه مسلم وغيره.

[معنى دعاء (اللهم طهرني..)]:

وسأَلت شيخ الإسلام عن معنى دعاء النبي ﷺ (اللهمَّ طهرني من خطايـاي بالماء والثَّلْج والبَرَد)[1] كيف تطهر الخطايـا بذلك؟ وما فائدة تخصيص التطهير بذلك؟ وقوله في لفظ آخر «والماء البارد» والحارُّ أبلغ في الإنقاء؟.

فقال: الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفاً، وترخي القلب وتضرم فيه نـار الشـهوة وتنجسـه، فإن الخطايـا والذنوب له بمنزلة الحطب الذي يمد النار ويوقدها، ولهذا كلما كثرت الخطايا اشـتدت نار القلب وضعفـه، والماء يغسـل الخبث ويطفئ النار، فإن كان بارداً أورث الجسم صلابة وقوة، فإن كان معه ثلج وبرد كان أقوى في التبريد وصلابة الجسم وشدته، فكان أذهب لأثر الخطايا.

هذا معنى كلامه، وهو محتاج إلى مزيد بيان وشرح.

فـاعلم أن ههنا أربعـة أمور: أمران حسّـيّان، وأمـران معنويـان. فالنجاسة التي تزول بالماء ومزيلها: حسّـيّان، وأثر الخطايـا التي تزول بالتوبة والاستغفار هي ومزيلها: معنويان، وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم إلا بهذا وهذا.

فذكر النبي ﷺ من كل شطر قسماً نَبَّه بِه على القسم الآخر. فتضمن كلامه الأقسام الأربعة في غاية الاختصار، وحسن البيان.

كما في حديث الدعـاء بعد الوضوء: (اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين) فإنه يتضمن ذكر الأقسام الأربعة.

ومن كمال بيانه ﷺ، وتحقيقه لما يخبر به، ويأمر به: ويمثل الأمر المطلوب المعنوي بالأمر المحسوس.

---

(١) متفق عليه (خ٧٤٤، م٥٩٨).

وهذا كثير في كلامه؛ كقوله في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (سل الله الهدى والسداد. واذكر بالهدى هدايتك الطريق، وبالسداد سَداد السَّهم)[1]، إذ هذا من أبلغ التعليم والنصح، حيث أمره أن يذكر إذا سأل الله الهدى إلى طريق رضاه وجنته: كونه مسافراً، وقد ضل عن الطريق، ولا يدري أين يتوجه، فطلع له رجل خبير بالطريق عالم بها، فسأله أن يدله على الطريق، فهكذا شأن طريق الآخرة، تمثيلاً لها بالطريق المحسوس للمسافر.

وحاجة المسافر إلى الله سبحانه: إلى أن يهديه تلك الطريق، أعظم من حاجة المسافر إلى بلد؛ إلى من يدله على الطريق الموصل إليها.

وكذلك السداد ـ وهو إصابة القصد قولاً وعملاً ـ فمثله مثل رامي السهم، إذا وقع سهمه في نفس الشيء الذي رماه، فقد سدد سهمه وأصاب، ولم يقع باطلاً، فهذا المصيب للحق في قوله وعمله بمنزلة المصيب في رميه.

وكثيراً ما يقرن في القرآن هذا وهذا.

فمنه قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] أمر الحاج بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم على زاد سفر الآخرة، وهو التقوى. فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يُبلغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى، فجمع بين الزادين.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فجمع بين الزينتين: زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوى، وزينة الظاهر والباطن، وجمال الظاهر والباطن.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٢٥).

ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَایَ فَلَا یَضِلُّ وَلَا یَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] فنفى عنه الضلال، الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضاً، فهو منعَّم القلب والبدن بالهدى والفلاح.

ومنه قول امرأة العزيز عن يوسف عليه السلام لما أرته النسوة اللائمات لها في محبته: ﴿فَذَ ٰلِكُنَّ ٱلَّذِی لُمۡتُنَّنِی فِیهِ﴾، فأرتهن جماله الظاهر. ثم قالت: ﴿وَلَقَدۡ رَ ٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ فأخبرت عن جماله الباطن بعفته، فأخبرتهن بجمال باطنه، وأرتهن جمال ظاهره.

فنبه النبي ﷺ بقوله: (اللهم طهرني من خطاياي بالماء والثلج والبرد)[1] على شدة حاجة البدن والقلب إلى ما يطهرهما ويبردهما ويقويهما، وتضمن دعاؤه سؤال هذا وهذا، والله تعالى أعلم.

وقريب من هذا: أنه ﷺ: كان إذا خرج من الخلاء قال: (غفرانك)[2] وفي هذا من السر - والله أعلم -: أن النَّجْوَ يُثقل البدن ويؤذيه باحتباسه، والذنوب تثقل القلب وتؤذيه باحتباسها فيه، فهما مؤذيان مضران بالبدن والقلب، فحمد الله عند خروجه على خلاصه منْ هذا المؤذي لبدنه، وخفة البدن وراحته، وسأل أن يخلصه من المؤذي الآخر ويريح قلبه منه ويخففه.

وأسرار كلماته وأدعيته ﷺ فوق ما يخطر بالبال.

* * *

(١) متفق عليه (خ٧٤٤، م٥٩٨).
(٢) أخرجه أبو داود (٣٠) وغيره.

الفصل الثالث

نجاسة المعاصي وأثرها على القلب[1]

[نجاسة الشرك والزنا واللواطة]:

وقد وسم الله سبحانه الشرك والزنا واللواطة بالنجاسة والخبث في كتابه دون سائر الذنوب وإن كانت مشتملة على ذلك، لكن الذي وقع في القرآن قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: ٢٨].

وقوله في حق اللوطية: ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ [الأنبياء ٧٤].

وقالت اللوطية: ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦].

فأقروا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الأخابث الأنجاس، وأن لوطاً وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له، وقال تعالى في حق الزناة: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ﴾ [النور: ٢٦].

[نجاسة الشرك نوعان]:

فأما نجاسة الشرك فهي نوعان: نجاسة مغلظة، ونجاسة مخففة.

---

(١) سبق الحديث عن أثر المعاصي على القلب، والمراد هنا بيان أثرها من حيث طهارة القلب.

فالمغلظة: الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

والمخففة: الشرك الأصغر؛ كيسير الرياء، والتصنع للمخلوق، والحلف به وخوفه ورجائه.

ونجاسة الشرك عينية. ولهذا جعل سبحانه الشرك نَجَساً - بفتح الجيم - ولم يقل: إنما المشركون نجِس - بالكسر - فإن النجَس عين النجاسة، والنجِس - بالكسر - المتنجس. فالثوب إذا أصابه بول أو خمر نجِس.. والبول والخمر نجَس. فأنجس النجاسة الشرك، كما أنه أظلم الظلم.

وإن النجَس في اللغة والشرع، هو: المستقذر الذي يطلب مباعدته والبعد منه، بحيث لا يلمس ولا يشم ولا يرى، فضلاً أن يخالط ويلابس لقذارته، ونُفْرة الطباع السليمة عنه. وكلما كان الحي أكمل حياة وأصح حياء كان إبعاده لذلك أعظم، ونفرته منه أقوى.

والأعيان النجسة إما أن تؤذي البدن أو القلب، أو تؤذيهما معاً. والنجَس قد يؤذي برائحته، وقد يؤذي بملابسته، وإن لم تكن له رائحة كريهة.

[أثر النجاسة على الروح والقلب]:

والمقصود: أن النجاسة تارة تكون محسوسة ظاهرة، وتارة تكون معنوية باطنة، فيغلب على الروح والقلب الخبثُ والنجاسة، حتى إن صاحب القلب الحي ليشم من تلك الروح والقلب رائحة خبيثة يتأذى بها. كما يتأذى من شم رائحة النَّتْن، ويظهر ذلك كثيراً في عَرَقه، حتى تجد لرائحة عرقه نتناً. فإن نَتْن الروح والقلب يتصل بباطن البدن أكثر من ظاهره. والعَرق يفيض من الباطن.

ولهذا كان الرجل الصالح طيب العرق. وكان رسول الله ﷺ أطيب الناس عرقاً.

قالت أم سُلَيم، وقد سألها رسول الله ﷺ عنه وهي تلتقطه: «هو من أطيب الطيب»(١).

فالنفس النجسة الخبيثة يقوي خبثها ونجاستها حتى يبدو على الجسد. والنفس الطيبة بضدها، فإذا تجردت وخرجت من البدن وجد لهذه كأطيب نَفْحَة مسك وُجدت على وجه الأرض، ولتلك كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض.

[ما رتب الله على الشرك من آثار]:

والمقصود: أن الشرك لما كان أظلم الظلم، وأقبح القبائح، وأنكر المنكرات، كان أبغض الأشياء إلى الله وأكرهها له، وأشدها مَقْتاً لديه. ورتَّب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه، وأخبر أنه لايغفره، وأن أهله نَجَس، ومنعهم من قربان حرمه، وحرّم ذبائحهم ومناكحتهم، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين، وجعلهم أعداء له سبحانه ولملائكته ورسله وللمؤمنين، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم، وأن يتخذوهم عبيداً.

وهذا لأن الشرك هَضْم لحق الربوبية، وتنقيص لعظمة الإلٰهية، وسوء ظن برب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٣٣١).

فلم يجمع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الإشراك، فإنهم ظنوا به ظن السوء، حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن لوحّدوه حق توحيده.

ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قَدَروه حق قدره في ثلاث مواضع من كتابه[1]، وكيف يقدره حق قدره من جعل له عَدْلاً ونِدّاً، يحبه، ويخافه، ويرجوه، ويذل له، ويخضع له، ويهرب من سخطه، ويؤثر مرضاته؟.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١].

أي يجعلون له عَدْلاً في العبادة والمحبة والتعظيم. وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم، وعرفوا ـ وهم في النار ـ أنها كانت ضلالاً وباطلاً، فيقولون لآلهتهم وهم في النار معهم ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨].

ومعلوم أنهم ما ساووهم به في الذات والصفات والأفعال، ولا قالوا: إن آلهتهم خلقت السماوات والأرض، وأنها تحيي وتميت، وإنما ساووها به في محبتهم لها، وتعظيمهم لها، وعبادتهم إياها، كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام.

ومن العجب أنهم ينسبون أهل التوحيد إلى التنقص ـ المشايخ والأنبياء والصالحين ـ وماذنبهم إلا أن قالوا: إنهم عبيد لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم

---

(١) هي في سورة الأنعام، الآية (١٩)؛ وسورة الحج، الآية (٧٤)؛ وسورة الزمر، الآية (٦٧).

ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأنهم لا يشفعون لعابدهم أبداً، بل قد حرم الله شفاعتهم لهم، ولا يشفعون لأهل التوحيد إلا بعد إذن الله لهم في الشفاعة، فليس لهم من الأمر شيءٌ، بل الأمر كله لله، والشفاعة كلها له سبحانه، والولاية له، فليس لخلقه من دونه وليٌّ ولا شفيع.

فالشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله، ولهذا قال إمام الحنفاء لخصمائه من المشركين: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ؟﴾ [الصافات: ٨٦-٨٧] وإن كان المعنى: ما ظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به، وقد عبدتم معه غيره، وجعلتم له نداً؟ فأنت تجد تحت هذا التهديد: ما ظننتم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره؟.

فإن المشرك:

إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه: من وزير، أو ظهير، أو عون. وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته.

وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشريك.

وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة.

أو لا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم.

أو لا يكفي عبده وحده، أن لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده الواسطة، كما يشفع المخلوق عند المخلوق، فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به، وتكثُّره به من القِلَّة، وتعززه به من الذِّلة.

أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن يرفع تلك الحاجات إليه، كما هو حال ملوك الدنيا.

وهذا أصل شرك الخلق.

أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم، حتى يرفع الوسائط إليه ذلك.

أو يظنْ أن للمخلوق عليه حقاً. فهو يُقْسِم عليه بحق ذلك المخلوق عليه، ويتوسل إليه بذلك المخلوق، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعزُّ عليهم ولا يمكنهم مخالفته.

وكل هذا تنقص للربوبية، وهضم لحقها، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة الله وخوفه ورجائه، والتوكل عليه، والإنـابة إليه، من قلب المشـرك، بسـبب قسمته ذلك بينـه سبحانه وبين من أشـرك به، فينقص ويضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء، بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عبده من دونه، لكفى في شناعته.

[البدعة قرينة الشرك]:

فالشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه، والتنقص لازم له ضرورة، شاء المشرك أم أبى. ولهذا اقتضى حمده سبحانه وكمال ربوبيته أن لا يغفره، وأن يُخلّد صاحبه في العذاب الأليم، ويجعله أشقى البرية. فلا تجد مشركاً قط إلا وهو متنقص لله سبحانه، وإن زعم أنه يعظمه بذلك.

كما أنك لا تجد مبتدعاً إلا وهو متنقص للرسول، وإن زعم أنه معظم له بتلك البدعة. فإنه يزعم أنها خير من السنة وأولى بالصواب، أو يزعم أنها هي السنة، إن كان جاهلاً مقلداً، وإن كان مستبصراً في بدعته فهو مشاقّ لله ورسوله.

فالمتنقصون المنقوصون عند الله ورسوله وأوليائه: هم أهل الشرك والبدعة، ولاسيما من بَنَى دينه على أن كلام الله ورسوله أدلة لفظية لاتقبل اليقين، ولاتغني من اليقين والعلم شيئاً. فيالله للمسلمين، أيُّ شيء فات هذا من التنقص؟

وكذلك من نفى صفات الكمال عن الرب تعالى، خشية ما يتوهمه من التشبيه والتجسيم. فقد جاء من التنقص بضد ما وصف الله سبحانه به نفسه من الكمال.

والمقصود: أن هاتين الطائفتين هم أهل التنقص في الحقيقة، بل هم أعظم الناس تنقصاً، لَبَّسَ عليهم الشيطان حتى ظنوا أن تنقصهم هو الكمال. ولهذا كانت البدعة قرينة الشرك في كتاب الله تعالى. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فالإثم والبغي قرينان. والشرك والبدعة قرينان.

[الفرق بين نجاسة المعاصي ونجاسة الشرك]:

وأما نجاسة الذنوب والمعاصي، فإنها بوجه آخر، فإنها لا تستلزم تنقيص الربوبية، ولا سوء الظن بالله عزَّ وجلّ. ولهذا لم يرتِّب الله سبحانه عليها من العقوبات والأحكام ما رتبه على الشرك.

وهكذا استقرَّت الشريعة على أنه يُعفَى عن النجاسة المخففة، كالنجاسة في محل الاسْتِجْمَار، وأسفل الخُفّ، والحذَاء وبول الصبي الرّضيع وغير ذلك، ما لا يُعْفَى عن المغلظة.

وكذلك يعفى عن الصغائر ما لا يعفى عن الكبائر، ويعفى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك، فلو لقَى الموحد الذي لم يشرك بالله شيئاً ألبتة ربَّه بقُراب الأرض خطايا أتاه بقُرابها مَغفرةٍ[1]، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده وشابَهُ بالشرك. فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب. فإنه يتضمن من

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم برقم (٢٦٨٧).

محبة الله وإجلاله، وتعظيمه، وخوفه، ورجائـه وحده، ما يوجب غسل الذنوب، ولو كانت قُراب الأرض، فالنجاسة عارضة، والدافع لها قويّ، فلا تثبت معه.

[أغلظ النجاسات: الزنا واللواطة]:

ولكن نجاسة الزنا واللواطة أغلظ من غيرها من النجاسات، من جهة أنها تفسد القلب، وتضعف توحيده جداً، ولهذا أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شـركاً؛ فكلما كان الشـرك في العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر، وكلما كان أعظم إخلاصاً كان منها أبعد، كما قال تعالى عن يوسـف الصديق: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤].

فإن عشق الصور المحرَّمة نوع تَعَبُّد لها، بل هو من أعلى أنواع التعبد، ولا سيما إذا استولى على القلب، وتمكّن منه صار تتيُّماً، والتتيم: التعبد، فيصير العاشق عابداً لمعشـوقه، كثيراً ما يغلب حبُّه وذكره والشوق إليه، والسـعي في مرضاتـه، وإيثـارُ محابِّـه على حب الله وذكره، والسـعي في مرضاته.

بل كثيـراً ما يذهب ذلك من قلب العاشـق بالكلية، ويصير متعلقاً بمعشوقه من الصور، كما هو مشاهد، فيصير المعشوق هو إلٰهه من دون الله، يقدِّم رضاه وحبه على رضَى الله وحبه، ويتقرَّبُ إليه ما لا يتقرب إلى الله، ويُنفق في مرضاته ما لا ينفقـه في مرضاة الله، ويتجنّب من سَـخَطه ما لا يتجنبه من سخط الله تعالى، فيصير آثر عنده من ربه: حُبّاً، وخضوعاً، وذلاً، وسمعاً، وطاعة.

[تلازم عشق الصور والشرك]:

ولهذا كان العشق والشرك متلازمين، وإنما حكى الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط، وعن امرأة العزيز، وكانت إذا ذاك مشركة، فكلما قوي شرك العبد بُليَ بعشق الصور، وكلما قوي توحيده صُرف ذلك عنه.

والزنا واللواطة كمال لذتهما إنما يكون مع العشق، ولا يخلو أصحابهما منه، وإنما لتنقُّله من محل إلى محل لا يبقى عشقه مقصوراً على محل واحد، بل ينقسم على سهام كثيرة، لكل محبوب نصيب من تألُّهه وتعبده.

فليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين، ولهما خاصية في تبعيد القلب من الله، فإنهما من أعظم الخبائث، فإذا انصبغ القلب بهما بَعُدَ ممن هو طيب، ولا يصعد إليه إلا طيب، وكلما ازداد خبثاً ازداد من الله بعداً.

ولهذا قال المسيح فيما رواه الإمام أحمد في (كتاب الزهد): «لا يكون البطَّالون من الحكماء، ولا تِلجُ الزناة مَلكوت السماء».

ولما كانت هذه حال الزنا كان قريباً للشرك في كتاب الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣][1].

---

(١) استطرد هنا المؤلف رحمه الله، حيث ذهب يفصل في شرح هذه الآية. فقال:

والصواب: القول أن هذه الآية محكمة، يعمل بها، لم ينسخها شيء، وهي مشتملة على خبر وتحريم، ولم يأتِ من ادّعى نسخها بحجة ألبتة، والذي أشكل منها على كثير من الناس واضح بحمد الله تعالى.

فإنهم أشكل عليهم قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ هل هو خبر أو نهي؛ أو إباحة؟. =

. . . .

= فإن كان خبراً فقد رأينا كثيراً من الزناة ينكح عفيفة.

وإن كان نهياً فيكون قد نهى الزاني أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة، فيكون نهياً له عن نكاح المؤمنات العفائف، وإباحة له في نكاح المشركات والزواني، والله سبحانه لم يرد ذلك قطعاً، فلما أشكل عليهم ذلك طلبوا للآية وجهاً يصح حملها عليه.

وقال بعضهم: المراد من النكاح الوطء والزنا، فكأنه قال: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة.

وهذا فاسد، فإنه لا فائدة فيه، ويصان كلام الله عن حمله على مثل ذلك، فإنه من المعلوم أن الزاني لا يزني إلا بزانية، فأي فائدة في الإخبار بذلك؟ ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه.

ثم قالت طائفة: هذا عام اللفظ خاص المعنى، والمراد به رجل واحد وامرأة واحدة، وهي عَناق البَغِيّ وصاحبها، فإنه أسلم، واستأذن رسول الله ﷺ في نكاحها. فنزلت هذه الآية.

وهذا أيضاً فاسد، فإن هذه الصورة المعينة وإن كانت سبب النزول، فالقرآن لا يقتصر به على محال أسبابه، ولو كان كذلك لبطل الاستدلال به على غيرها.

وقالت طائفة: بل الآية منسوخة بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، وهذا أفسد من الكل، فإنه لاتعارض بين هاتين الآيتين، ولا تناقض إحداهما الأخرى، بل أمر سبحانه بإنكاح الأيامى، وحرّم نكاح الزانية، كما حرّم نكاح المعتدة والمحرمة، وذوات المحارم، فأين الناسخ والمنسوخ في هذا؟.

فإن قيل: فما وجه الآية؟.

قيل: وجهها ـ والله أعلم ـ أن المتزوج أمر أن يتزوج المحصنة العفيفة، وإنما أبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط، كما ذكر ذلك سبحانه في سورتي النساء والمائدة [النساء: ٢٤، المائدة: ٥]، والحكم المعلق على الشرط ينتفي عند انتفائه، والإباحة قد علّقت على شرط الإحصان، فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به.

فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذي شرعه على لسان رسوله، أولا يلتزمه، فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله، وإن التزمه وخالفه ونكح ما حرم عليه، لم يصح النكاح، فيكون زانياً، فظهر معنى قوله: ﴿لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ وتبين غاية البيان، وكذلك حكم المرأة.

وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه فهو موجب الفطرة، ومقتضى العقل، فإن الله سبحانه حرم على عبده أن يكون قَرْناناً دَيُّوثاً زوج بغيّ، فإن الله تعالى فطر الناس على استقباح ذلك واستهجانه، ولهذا إذا بالغوا في سب الرجل قالوا: زوج=

[أثر الزنا في بعد القلب عن الله]:

والمقصود: أن الله سبحانه سمي الزواني والزناة خبيثين وخبيثات، وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة، وإن كان حلالاً، وسمي فاعله جنباً، لبعده عن قراءة القرآن، وعن الصلاة، وعن المساجد، فمنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء.

فكذلك إذا كان حراماً يبعد القلب عن الله تعالى، وعن الدار الآخرة، بل يحول بينه وبين الإيمان، حتى يحدث طهراً كاملاً بالتوبة؛ وطهراً لبدنه بالماء.

وقول اللوطية: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢] من جنس قوله سبحانه في أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة ٥٩].

= قحبة، فحرّم الله على المسلم أن يكون كذلك.

فظهرت حكمة التحريم وبان معنى الآية، والله الموفق.

ومما يوضح التحريم، وأنه هو الذي يليق بهذه الشريعة الكاملة: أن هذه الخيانة من المرأة تعود بفساد فراش الزوج وفساد النسب الذي جعله بين الناس لتمام مصالحهم، وعده من جملة نعمه عليهم، فالزنا يفضي إلى اختلاط المياه، واشتباه الأنساب، فمن محاسن الشريعة: تحريم نكاح الزانية، حتى تتوب وتُستبرأ.

وأيضاً فإن الزانية خبيثة، كما تقدم بيانه، والله سبحانه جعل النكاح سبباً للمودة والرحمة، والمودة خالص الحب، فكيف تكون الخبيثة مودودة للطيب، زوجاً له، والزوج سمّي زوجاً من الازدواج وهو الاشتباه فالزوجان الاثنان المتشابهان، والمنافرة ثابتة بين الطيب والخبيث شرعاً وقَدَراً، فلا يحصل معها الازدواج والتراحم والتواد، فلقد أحسن كل الإحسان من ذهب إلى هذا المذهب، ومنع الرجل أن يكون زوج قحبة.

فأين هذا من قول من جوز أن يتزوجها ويطأها الليلة، وقد وطئها الزاني البارحة، وقال: ماء الزاني لاحرمة له؟!! فهب أن الأمر كذلك، فماء الزوج، له حرمة، فكيف يجوز اجتماعه مع ماء الزاني في رحم واحد؟.

وهكذا المشرك إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد، وإنه لا يشوبه بالإشراك. وهذا المبتدع: إنما ينقم على السني تجريده متابعة الرسول، وأنه لم يشبهها بآراء الرجال، ولا بشيء مما خالفها. فصبر الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة خير له وأنفع، وأسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة.

إذا لم يكن بدٌّ مِنَ الصَّبْرِ، فَاصْطَبِرْ على الحَقِّ، ذاكَ الصَّبرُ تُحْمدُ عُقْباهُ

* * *